

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

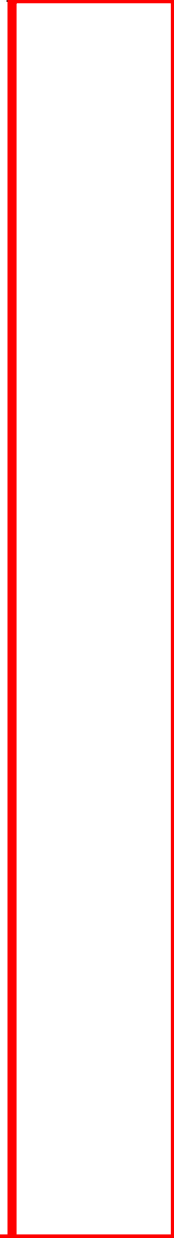
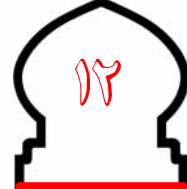
الجزء الخامس عشر

تتمة سورة يوسف - سورة الرعد

سورة إبراهيم - سورة الحجر

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسِوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أُمَّرَاتُ الْعَزِيزِ أَلَمْ نَحْصَصْ الْحَقَّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ
 مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ
 نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَكَانُوا يَنْقُورُونَ ﴿٥٧﴾

مضت السنون البضع، سبعاً أو زاد ولم يذكر الذي ظن أنه ناج أن يذكر
 الصديق عند ربه، وهذه طبيعة الحال للناس النسناس على أية حال، إلا أن
 يحظو حظوة مادية من هذه الذكريات.

لقد كان يوسف بأيدي إخوته ضحية الحقد الماكن في قلوبهم فجعلوه
 في غيابت الجب، وبأيدي السيارة متاعاً يشرى وبثمن بخس، وعند العزيز
 ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾^(١) وللعزيزة شغفاً في متعة الجنس،
 وللسجينين معبراً للرءيا، ثم الذي نجا لا يذكر أمره إلا بعد بضع من السنين
 يحتاجه لمرّة أخرى معبراً لرؤيا الملك علّه يزداد عنده شأنًا ومزيداً!

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ
 خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾^(٢):

أترى ﴿الملك﴾ هنا - وللتالي تنمة القصص - هو العزيز؟ كأنه لا، فإن
 مختلف التعبير بمختلف الأفعال تعبير عن مختلف الفواعل، فلو كان هو
 العزيز لقال «وقال العزيز» أم قال في قصة المراودة «امرأة الملك»! ثم
 ﴿أمرأت العزيز﴾ في قصة الملك دون امرأة الملك، ولما يستخلص يوسف
 لنفسه يصبح هو العزيز ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ﴾^(٢) هذان يؤيدانه، وأن

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

العزیز هو الشخصية الثانية في المملكة وقد عزل أو مات أو قتل فأصبح الصديق هو العزیز .

وقد تلوح ﴿إِنِّي أَرَى﴾ بتكرار الرؤيا، حيث المضارعة في بيان الرؤيا الماضية تلمح إلى المداومة، والسماں جمع السمينة كما العجاف للعجفاء الهزيلة، أرى سبعين مختلفين في السمن والهزال، ومن العجاف أن العجاف يأكلن السماں، وأرى سبع سنبلات خضر وسبعاً آخر منها يابسات .

﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُءْيَايَ﴾ من الفتوى والفتيا وهو الجواب عن حكم المعنى، والجواب عن نفس المعنى .

فليس من الفتيا، و«تعبرون» هو العبور عن المعنى الظاهر إلى حكم الباطن، كما العبارة عبور عن اللفظ إلى معناه، فتأويل الرؤيا هو العبور إلى حقيقتها المعنية منها .

ولحد الآن في ذلك القصص تمر بنا رؤي ثلاث، من يوسف وصاحبي السجن والملك، والاهتمام بها وتأويلها يعطينا صورة من جو العصر آنذاك في مصر وخارجها، فالهبة اللدنية المؤتاة ليوسف من علم تأويل الرؤيا كانت تناسب جو العصر وروحه، حيث يحتاجه المؤمن وسواه سواء .

يطلب الملك - في اضطراب بال وسوء حال مما يراه - إلى الملاء من الكهنة والحاشية الملكية، وهم يحددون عن تأويلها جهلاً أو تجاهلاً على طريقة رجال الحاشية في إخفاء ما يسوءه وإظهار ما يسره واختلاق الجو المساعد لهواه .

و﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ يعبر عن تهديده لهم ليفكروا جيداً حتى يعبروا، ولكنهم رغم اضطراب الملك وتهديده:

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ :

وهذه أحسن عبارة وأبلغ استعارة عما يعنون في حيدهم وميدهم،

فالأضغاث هي الخلائط من الحشيش المضموم بعضها إلى بعض، كالحزمة وما يجري مجراها، يشبه هنا اختلاط الأحلام، وما يمر به الإنسان من مكروه ومحبوب والمساءة والسرور، باختلاط الحشيش المجموع من أخفاف عدة وأصناف متعددة.

فأضغاث من أحلام، يخلط بعضها ببعض، دون رباط ظاهر، ليس لها تأويل، وكما الأحلام ليس لها تأويل، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ لأنها أحلام تستجر من اليقظة إلى المنام، فليست - إذاً - لتكشف عن حقيقة وراءها سوى نفسها، أم وحتى إذا كانت لها حقائق ف ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فضلاً عن أضغاثها وهي ظلمات بعضها فوق بعض! وتراهم كيف يتجرءون على التعبير عن رؤيا الملك بـ ﴿أَضَعْتُ أَحْلَامِي﴾ وفيه حظ من ساحته ومس من كرامته؟ عله للحفاظ على اطمئنان خاطره ألا يشوش بما يرى، وإعذارهم أنفسهم ألا يتساءلهم كيف لا تعبرون ما أرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وقضية الحفاظ على الأمرين هي إبعاد الرؤيا عن كونها ذات حقيقة، فسواء أكانوا يعلمون تأويلها أم يجهلون فصيانه الموقف تقتضي ما قصوه.

واللوحة الظاهرة من هذه المنامة في نظرة سطحية هي استيلاء الضعيف على القوي، وذلك يهدد السلطة الفرعونية بالزوال، ولو كانوا يعلمون ما أوله يوسف لكانوا يتسابقون في تأويله حظوة عند الملك كما حظى الصديق، ولكنهم علموا ظاهراً منه سطحياً فهابوا الملك أن يؤلوه بما علموا و ﴿قَالُوا أَضَعْتُ أَحْلَامِي...﴾!

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾

﴿الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ هنا هو ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ هناك، حيث قال له يوسف ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَآنَسَ شَيْطَانُ ذِكْرِ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضَعَّ سِنِينَ﴾ وهو الآن ﴿وَادَّكَرَ﴾ ما ذكر قبل ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ منه، ولأن له حظوة